عنوان البرنامج: مدخل لدراسة التصوف
الوحدة الثانية: معيقات منهجية لدراسة التصوف
الدرس الثاني: الوقوف عند المنقول دون المقول
اسم المحاضر: الدكتور عبد الصمد غازي

الوقوف عند المنقول دون المقول

إن الوقوف عند المقول بشرائطه الاشتغالية المميزة للموروث الصوفي، دون مجرد المنقول التاريخي، ينشد تحقيق الإفادة من درره وذخائره، ذلك لأن الأمانة العلمية تقتضي التفريق بين أقوال الصوفية التي لا تنفك عن سياقاتها العملية، وفهوم مؤرخي الفكر وكُتّاب الطبقات لأقوال الصوفية وأفعالهم، إذ لا بد من التمييز بين هذين المستويين في التعامل مع المتن الصوفي. فكتب الطبقات مثلاً غالباً ما تكتب في وقت متأخر عن حياة المترجم لهم، كما يلاحظ عليها تأثيرها بالتلوينات المذهبية والميولات الفكرانية لأصحابها، وعدم أخذ ذلك في الاعتبار يؤدي إلى عدم تبين حقيقة أقوال الصوفية، والخلط بينها وبين أنظار ورؤى المؤرخين لهم. حتى بالنسبة لمن واكبوا أحداث المترجمين لهم فإن أصل نقل الخبر لا بد من أن يعتريه النقص لأن اللغة بطبيعتها قاصرة على نقل الزخم الروحي للتجربة الأخلاقية وآثارها الروحية والمقامية والعملية بصفة عامة.

وهذا أمر لا يختص به التصوف وحده، بل هو شامل لسائر الروايات على اختلاف موضوعاتها وهذا ما عناه ابن تيمية بقوله: «وهكذا كثير من أهل الروايات، ومن أهل الآراء والأذواق، من الفقهاء والزهاد والمتكلمين وغيرهم، يوجد فيما يأترونه عن قبلهم، وفيما يذكرون معتقدين له شيء كثير، وأمر عظيم من الهدى ودين الحق الذي بعث الله به رسوله. ويوجد أحياناً عندهم من جنس الروايات الباطلة أو الضعيفة، ومن جنس الآراء والأذواق الفاسدة أو المحتملة شيء كثير»¹.

ومن الأمثلة الدالة على هذا الملحظ مسألة الصفة وربط التصوف بصفات أهلها

1. مجموع فتاوى ابن تيمية، 43/11.

حيث ذهب بعض المؤرخين إلى اعتبار الصوفية ورثة أهل الصفة في أحوالهم وأوصافهم، حيث قال الكلاباذي²: «وقال قوم إنما سمو صوفية لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصفة الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم»³.

كما نجد هذا الربط بين أهل الصفة والصوفية محددًا عند الطوسي وأبي طالب المكي وغيرهما، بل تابع هؤلاء المؤرخين الدارسون المعاصرون كمحمد الجليند ومحمد مصطفى حلمي الذي رأى في سيرة أهل الصفة بذرة التصوف الأولى فقال: «ونحن لا نجد بذور هذه الحياة الروحية مغروسة في قلب النبي صلى الله عليه وسلم وقلوب صحابته من الخلفاء الأربعة فحسب، وإنما نحن واجدوها أيضًا حية نامية في قلوب كثير من الصحابة غير الخلفاء، ويكفي أن نذكر هنا أهل الصفة، وما كان لهم من أثر قوي في تاريخ الحياة الروحية الإسلامية عامة، وفي تاريخ التصوف الإسلامي خاصة»⁴.

إلا أن هذا الربط الذي جرى على لسان بعض المؤرخين القدامى وتابعهم عليه بعض الدارسين المحدثين لم يؤخذ مأخذ التسليم بل كان محل مساءلة واستشكال سنعود إلى تفصيل القول فيها في البرامج المقبلة الخاصة بعلم التصوف. والحاصل أن الربط المذكور لا صلة له بحقيقة التصوف وإنما هو من اصطناع أهل التاريخ.

2. محمد بن إسحاق الحنفي البخاري الكلاباذي، أطلقوا عليه تاج الإسلام لعلمه وفضله، فقد كان موسوعة، وكان من علماء الصوفية، وله كتاب «التعرف إلى أهل التصوف»، جمع فيه مذهبهم وأحوالهم، وعرف بطريقتهم وتسميتهم ومعتقداتهم، حتى قيل إن كتابه صورة للتصوف في زمنه، وكان الكلاباذي عالماً أصولياً، ومن مؤلفاته: «الأربعون» في الحديث، و«الإشعاع والأوتار»، و«بحر الفوائد» المشهور ب«معاني الأخبار». توفي سنة 380 هـ. الموسوعة الصوفية، ص 205.

3. التعرف لمذهب أهل التصوف، لأبي بكر محمد بن إسحاق الكلاباذي، ضبط وتعليق: أحمد شمس الدين، ط1: 1413 هـ - 1993 م، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان. ص 10.

4. الحياة الروحية في الإسلام، محمد مصطفى حلمي، الهيئة العلمية للكتاب، 1984 م، ص 28.